الإتحاد

نصف قرن من العطاء الجمالي بين التجريد وفتنة الحروف

## رافع الناصري.. جدلية العتمة والضوء

حجم الخط

تاريخ النشر: الخميس 19 ديسمبر 2013

د. رسول محمد رسول

في ثمانينيات القرن الماضي، وكلّما رأيتُ الفنان التشكيلي رافع الناصري في صالات بغداد الفنية، بدا لي رشيق الحضور بوجهه التساؤلي، ولون قميصه الأسود الذي لا يفارقه، لكنّها لوحاته الفنية كانت تأخذني بعيداً كلما رأيت لوحة من لوحاته في (مركز صدام للفنون) أو في (قاعة الرواق)، أو في قاعات فنية أخرى هي اليوم تبكي رحيل الناصري عن عمر ناهز 73 عاماً أغناها بالعطاء الجمالي والفني رائع الحضور.

ولد رافع الناصري في (مدينة تكريت) عام 1940، ليأتي إلى بغداد طالباً في (معهد الفنون الجميلة) بين عامي 1956 – 1959 يوم كانت حرائق الثورة التموزية تلهب الشارع العراقي، ويحلق تالياً إلى الصين ليحطّ رحاله طالباً بـ (الأكاديمية المركزية في بكين)، ويدرس فيها الحفر على الخشب، متخصّصاً بفن الغرافيك، وهناك أقام أول معرض تشكيلي له.

عاد الناصري إلى بغداد وهو يحمل طاقة معرفية هائلة في فن الغرافيك، لكنّه، وفي أثناء، تدريسه في (معهد الفنون الجميلة)، مال إلى الواقعية التشخيصية، إلاّ أن فنون الغرافيك ظلّت هاجسهُ حتى "سافر عام 1967 إلى البرتغال، ودرس في (لشبونة) الحفر على النحاس.

وفي تلك المرحلة اكتشف جماليات الحرف العربي، وأدخلها في تكوينات تجريدية، كما اكتشف (الأكريليك) واستعمله بدلاً عن الألوان الزيتية. وبعد عودته إلى بغداد عام 1969، أسس (جماعة الرؤية الجديدة) مع عدد من التشكيليين العراقيين، وشارك في تأسيس (تجمُّع البُعد الواحد) مع الفنان الراحل شاكر حسن آل سعيد".

واقعية تشخيصية

كانت تجربة الناصري مع فن الغرافيك قد منحته التماس المباشر مع الطبيعة، بل مع أحد عناصرها المهمة ألا وهو الخشب. وعندما عاد إلى بغداد ارتمى في واقعية تشخيصية، لكن ارتماؤه ذاك لم يكن ليروق له وهو الباحث عن تميز ما، وكانت رحلته إلى (لشبونة) لدراسة (الأكريليك)، جعلته ينأى قليلاً عمّا هو زيتي من الألوان، بل وجد باباً ينفذ من خلاله إلى عوالم تشكيلية جديدة تميل إلى التجريد قليلاً حتى وجد فرصته الذهبية في التعامل مع الحروف كأشكال تمتلك طاقة تجريدية غير محدودة.

كانت تلك التجربة قد وضعت رافع الناصري عند عتبة التجريد، لكنه كان يبحث عن سياق تعاوني يحدّد الأفق، ولذلك أسس (جماعة الرؤية الجديدة)، بيد أن تلك الجماعة لم تكن تشفي غليل الرغبة العارمة بالتجريد لديه فوجد في تجربة الفنان شاكر حسن آل سعيد التجريدية، ومن خلال توظيف الحرف، محطة دافئةً جعلت من الأفق التجريدي واضحاً لديه، وبدأ مشروعه الجمالي يأخذ مدياته في أعماله ومعارضه التشكيلية لاحقا حتى رحيله.

في خضم كل تلك التحوّلات، التي كان الناصري خلالها يبحث عن تشكيل هويته الجمالية، ولم تكن الطبيعة بالغائبة عنه، فقد بقيت مرجعية أساسية في أعماله تعضدها مرجعية التجريد، وكذلك مرجعية الغرافيك، فضلاً عن مرجعية الحروف، وصارت كل تلك المرجعيات هويته الجمالية في حياته الفنية الحافلة بالعطاء من خلال مجموعة كبيرة من لوحاته التي طاف بها في غير مدينة وبلد وقارة.

اختيار المحرر

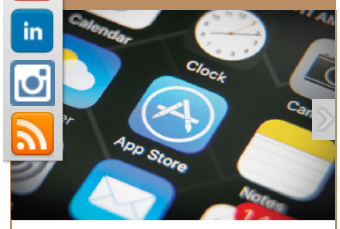


«آب ستور» يبيع تطبيقات بـ 300 مليون دولار في يوم واحد

أخبار

- الرياضة قد تكون أفضل علاج لتدهور الإدراك
- مقتل 8 إرهابيين بشمال سيناء المصرية
- مقتل 21 مدنياً في غارات جوية على إدلب
- الذهب يهبط مع صعود الدولار
- 5 قتلى في حريق بمقهى بالهند

أكثر المقالات الشائعة
إرسالاً | قراءة | تعليقا
وقفة أمام مستشفى ألماني ضد المرشح لخلافة خامنئي
إطلاق أول جمعية في الدولة للإنعاش القلبي
تحديث الخريطة الإلكترونية لمزودي الرعاية الصحية بأبوظبي
«إسعاد المجتمع» تتفقد سير «افحصي.. تسلمي»
«صحة دبي» تحذر من الاستخدام العشوائي للمضادات الحيوية
اشترك الآن بالنشرة الإخبارية
البريد الإلكتروني
أضف بريدك الإلكتروني
اشترك
تغريدات بواسطة @aletihadae
صحيفة الاتحاد @aletihadae
"المالية" تقدم فيلم وثائقي قصير يعرض لمحات عن حياة الأب المؤسس الشيخ
#زايد_بن_سلطان_آل_نهيان طيب الله ثراه
#عام_زايد @YearofZayed #مصدرك_الأول
15 ث
إدراج
مشاهدة على تويتر

يقول الناقد فاروق يوسف: "كانت علاقة الناصري الإلهامية بالطبيعة هي ما دفع به إلى اعتماد طريقة تجريدية في النَّظر إلى العالم، وهو ما جعله ينتقل بيسر إلى تفحُّص جماليات الحرف العربي انطلاقاً من ليونة شكلية، ستكون بمثابة المعبر الذي يصل ما بين الطابع الموسيقي الحركي الذي يتأنق من خلاله الحرف وبين الدلالات النَّفسية التي تنطوي عليها قوة المعاني في جُمل قد لا تكتمل".

إن لجوء رافع الناصري إلى الطبيعة بدا لجوءً كونياً؛ فبالإضافة إلى الطبيعة العراقية متعدِّدة الأشكال، كانت دراسة الناصري في بكين قد زودته بمعطيات عن الطبيعة الصينية بكل ما فيها من مكامن ساحرة، فضلاً عن الطبيعة التي احتفت به في مدينة لشبونة والمدن التي زارها فناناً بدرجة الاحتراف.

تجريد الأمل

لم يكن رافع الناصري واقعياً مباشراً أو تسجيلياً، وهو الذي تعلَّم من التجريد فن التمثيل الجمالي الذهني، ولهذا كانت الطبيعة تحضر في لوحاته متهدجة بكونيتها، مشبعة بلغة تجريدية عالمية تتوسَّلها للتعبير عن مكنونات الذات الإنسانية تجعل المتلقّي يبحث عنها بين مطاوي اللون والضوء والحرف مجتمعة ليس بعيداً عن إطارية اللوحة التي لا تغلق أجواء فضاءها المكاني إلاّ لتفتحه من جديد فيغرق أحدنا متأملاً عوالم الناصري الجمالية غير المتناهية في لوحاته.

عندما كنتُ أنظر في لوحات الناصري التي يبسطها في معارضه التي يفتتحها ببغداد، كانت استخداماته للون فيها تشدني على نحو باهر، ولكن لم تكن أية لوحة من لوحاته لتخلو من لون داكن، إلاّ أن ما يكسر عتمة لوحاته تلك هو الضوء الذي ينبثق فيها كحلم أو أمل أو إشارة لغد آت أو ولادة ممكنة في ظل موت سافر يطحن الحياة.

بدت استخدامات اللون لدى الناصري تثبيتاً لمركزية التجريد في تجربته التشكيلية، بمعنى أن الناصري مثلما وجد في الحرف طاقة تجريدية، كذلك وجدها في الضوء الذي هيمن على أغلب لوحاته، لكنه الضوء الكوني أيضاً، ذلك الضوء الذي لا يريد أن يكتسب هويته إلاّ بوصفه خلاصاً إنسانياً من عتمة الوجود الطاغية على حياة البشر. لقد تزامن استخدام اللون الداكن مع اللون الأحمر القاني في لوحات عدّة للناصري لما لهذا اللون من أهمية مركزية في عالم الفنون التشكيلية، إذ "أن عدد الموجات أو الأشعة الضوئية الساقطة على شبكة العين هو الذي يقرر ما نحس به من متعة أو ضيق"، كما يقول هربرت ريد في كتابه (تعريف الفن).

لقد عاش الناصري في بلد أريقت في مدنه الدماء بلا هوادة، ولذلك كان اللون الأحمر يغزو دواخله ليستقر على سطوح لوحاته التي تتقاسمها ألوان أخرى داكنة، لكنّه الضوء المشرق الذي نجد تبئيراً له في وسط اللوحة أو في أعلاها أو أسفلها يبدو مخرجاً لأمل ممكن، بل لولادة ممكنة في ظل الخراب الأهوج الذي كان وطن الناصري سائراً في دروبه وما يزال.

حرف وشعر ودلالات

كانت تجربة الحرف في لوحات رافع الناصري ذات أثر بالغ في مشهد الفن التشكيلي العراقي المعاصر لا تقل أهمية عن التجربة ذاتها لدى الفنان الراحل شاكر حسن آل سعيد. وعندما ندخر وقتاً لمعاينة لوحات الناصري التي استخدم فيها تلك الطاقة الهائلة لتوظيف الحرف، نجدها تتعدَّد بحسب طبيعة تجربة الفنان مع لوحة ما دون أخرى. في لوحات عدَّة يحضر الحرف بجسديته المعتادة، لكنّه يستمد دلالته من السياق الدلالي الكوني للوحة، فيظهر في لوحة ما بحرف واحد، ويظهر في أخرى ككلمة مؤلّفة من حروف عدَّة، وفي لوحة ثالثة يظهر جُملة تراثية أو آية قرآنية أو بيتاً من الشِّعر.

قد يأتي استخدام الحروف ارتكاساً للواقع وما يتطلّبه من مخاطبة مباشرة، لكنّه، وفي لوحات الناصري، يكتسب نمطاً آخر كونه يتساوق مع دلالة اللوحة الجمالية والمضمونية، فلا يأتي الاستخدام منعتق الصلة عن سياق اللوحة، لاسيما وأن الحرف العربي الموظف في اللوحة يأتي وفق بؤرة ضوئية ولونية قد تستحوذ على عالم اللوحة برمته لكنّهما يشتركان مع لغة اللوحة في نسق واحد.

وجد رافع الناصري في زوجته الشاعرة (مي مظفر) عالماً جمالياً عاطراً بأنوثة سماوية مبدعة، مي مظفر التي رافقته سنين عمره، وسهرت على فنه وحياته حتى رحيله.

لقد وظف الناصري قصائد زوجته في عدد من لوحاته، وكانت تلك تجربة أخرى من تجارب تعامله مع الحروف؛ ففي عام 2008، كان الناصري قد رسم لوحة ضمَّنها قصيدة من قصائد زوجته مي التي كتبتها قبيل انهيار نظام صدام حسين في بغداد عام 2003، ونشرتها تالياً في ديوانها (من تلك الأرض النائية) الذي صدر في بيروت عام 2007، وجاء في القصيدة:

"هُزمت بنا الأرضُ

لم تبق السماء لنا رمق

طارت على كل الجهات عباءتي

منسوجةٌ بخيُوط نار..

حملت على ريش الجناحين اللذين تعاندا

شعباً ينام على ورق".

لم يعمل الناصري على تمثيل الدلالة الكلية لما ترمي إليه القصيدة فقط، إنما وظف وجودها النَّصي بكل حمولته الدلالية والخطابية والجسدية في سطح اللوحة حتى أصبح جزءً من نسيجها النَّصي، وصارت دلالة النَّص الشعري منصهرة على نحو تلقائي مع دلالة النَّص التشكيلي في اللوحة، بل صارا معاً لوحة واحدة في جسدها ودلالتها وخطابها.

لقد رحَّل الناصري بعض دلالات النَّص الشعري وحولها إلى نصوص تشكيلية، ولعل بقع اللون الأحمر المنساب في اللوحة إلى الأسفل يشي بدلالة الموت، واللجوء إلى البقع السوداء يشي أيضاً بحجم الخراب، ناهيك عن البياض المشروخ في وسط اللوحة، والذي يدلّ على هوة الضياع، وهو الضياع الذي تحتمي به القصيدة كمآل طال الذات البشرية الملتاعة بالحروب وبدمار الأوطان.

في مطلع تسـعينيات القرن الماضي، وبينما كانت الحرب على العراق قد أودت بحياة مئات الآلاف من العراقيين، يغادر رافع الناصـري وطنه حزيناً باكياً على مصير العراق المعـذب، ويظل في مناف عدّة لعلّ أهمها الأردن والبحرين، لكنّه يعـود إلى عمّان، ويمكث فيها حتى اعتلى المرض روحه، ليغادر عالمنا موتاً في السـابع من ديسـمبر الجاري، وليفقد العالم فناناً أصيلاً أحبَّ الحياة والطبيعة والخشب واللون والضوء والكلمة الطيبة والفكرة الأصيلة، ولعل الأهم من ذلك كله أحبَّ الإنسان وهو الذي رسم له على مدى خمسين عاماً.

Tweet Like 156K

## التعليقات

لا يوجد تعليق لهذا المقال

## إضافة تعليقك

الإسم

البريد الإلكتروني

عنوان التعليق

التعليق

600

81vpp

أدخل النص هنا

اشتراك

## مقالات شائعة

الأكثر إرسالاً | أخبار ذات صلة | الأكثر قراءة

- وقفة أمام مستشفى ألماني ضد المرشح لخلافة خامنئي
- إطلاق أول جمعية في الدولة للإنعاش القلبي
- تحديث الخريطة الإلكترونية لمزودي الرعاية الصحية بأبوظبي
- «إسعاد المجتمع» تتفقد سير «افحصي.. تسلمي»
- «صحة دبي» تحذر من الاستخدام العشوائي للمضادات الحيوية